الأدب الإنجليزي(01)

تمهيد: الحديث عن الادب الإنجليزي الحديث والمعاصر هو الحديث عن فترة عرفت بالعصر الفكتوري والتي بدأت عام 1837 حين حكمت فكتوريا ملكة بريطانيا البلاد واستمر حكمها حتى عام 1901، وشهدت هذه الفترة تغيرا عظيما في الأدب والاقتصاد والسياسة، حيث وصلت الإمبراطورية البريطانية إلى أوج عظمتها لتغطي حوالي ربع الكرة الأرضية.

توسعت التجارة والصناعة بسرعة وقطعت السكك الحديدة والأقنية المائية البلاد طولا وعرضا، وتقدم العلم والتكنولوجيا وكبر حجم الطبقة المتوسطة بشكل هائل.

أخذ عدد المثقفين يزداد في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، إضافة إلى ذلك قدمت الحكومة إصلاحات ديمقراطية فسمحت على سبيل المثال لعدد اكبر من الناس بالتصويت بالرغم من رخاء العصر الفكتوري.

ظهرت بعض النظريات العلمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي تحدت التعاليم الدينية والتي كانت محل جدل نحو نظرية النشوء والارتقاء.

تناول كتّاب العصر الفكتوري التباين بين غنى الطبقتين المتوسطة والعليا وحالة الطبقة الفقيرة المزرية كما بدأوا في تحليل ضعف الايمان بالقيم التقليدية في أواخر القرن التاسع عش، وقد ظل بعض الكتاب ينتجون أعمالا مهمة بعد الحرب العالمية الثانية تستكشف المستقبل وعوالم ومجتمعات بديلة.

1.الشعر الإنجليزي:

في عام 1932 أعلن الناقد الإنجليزي(ف.ر.ليفيز) أن إليوت و(إزراباوند) قد فتحا آفاقا جديدة للشعر الإنجليزي بمنحه اتجاهات ومضامين وأشكالا مستحدثة رغم انها تستمد جذورها من التقاليد الشعرية والأدبية التي سبقتها، ولكن الناقد قد سحب أحكامه بعد عشرين عاما.

وقد وافقه الراي الناقد (ألفريد ألفاريز) في كتابه (خدمة الإبداع الفني) عام 1958، إذ يرى أن الأساليب التجريبية التي ابتدعها الشاعر الإنجليزي ذو الأصول الأمريكية وغيره من شعراء المدرسة الحديثة لم تؤثر تأثيرا حاسما على الذوق الإنجليزي المعاصر.

فقد كانت نظرة هؤلاء نظرة أمريكية في المقام الأول، حاولت أن ترتدي ثياب التقاليد الإنجليزية العريقة في الشعر، وما يستنتج من شعر إليوث هو أن شعره شعر عالمي من أرقى طرازن ولكن الشعر الإنجليزي ينبغي تقييمه كفن قومي له خصائصه المرتبطة بالحضارة القومية والثقافة المحلية مضافا إليها التأثيرات الخارجية، لكن دون أن تطمس على الشخصية المحلية.

وقد أصيب التجريب الذي بدأه إليوث بنكسة عندما أعلن أنه انجلو كاثوليكي فيما يخص العقيدة وملكي من حيث السياسة، وكلاسيكي من ناحية الادب، بعد أن ظن الشعراء أنه نبيّ الثورة الأدبية المعاصرة، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل حينما اكتشفوا أنه محافظ ومتعصب ناحية التقاليد القديمة سواء في الدين أو السياسة أو الأدب.

وما يميز حركة الشعر الإنجليزي هو سيطرة الطبيعة المحافظة للمزاج الإنجليزي والتي تأبى التغيير والتجديد، يقول (توماس هاردي) معلقا على مدى تقبل القارئ الإنجليزي للشعر الحر:" إنه يبدو أن الشعر الحر لن يتمكن من الاندماج الكي في نسيج الشعر الإنجليزي الكلاسيكي".

وتعد أهوال الحرب العالمية الثانية سببا في بحث الناس عن أشكال ينفسون بها عن عواطفهم المضطربة، فلم تكن فترة الاربعينيات مرحلة التفكير الهادئ المتأني لأن الناس قد سئموا الفلسفة والأفكار خاصة تلك التي أدت إلى الحرب.

وظهر الشاعر(ديلان توماس) نجما في سماء شعر الأربعينات بتطويره للغة إلى جانب المضمون المعاصر والأصيل، ولم يتمكن من تجسيد هذا المضمون بحرية لأن الرقابة في أثناء الحرب أرادت أن تحول الأدب إلى أبواق إعلامية، فلجأ إلى الغموض، وقد اساء تلاميذه فهم هذا الاتجاه وضروراته فظنوا أنه على الشعر بألا يوحي بأي معنى.

وفي مجتمع مثل المجتمع الإنجليزي الذي يتميز بالمحافظة والرتابة إلى حد ما تصاب التجربة الشعرية بالضحالة السطحية، لذلك نجد الشاعرين المعاصرين اللذين يمتاز شعرهما بالعمق والخصب وهما (تيد هيوز) و(توم جن) قد امضيا فترة الشباب المبكر في أمريكا بحيث منحت الانطباعات والتأثيرات الامريكية شعرهما أبعادا وأعماقا قل ما نجدها في الشعر الإنجليزي المعاصر، فقد رفضا اللهجة الرزينة ومنحا تجربتهما كل إمكانيات التفجر والعنف والوحشية.

حاول الاتجاه الجديد في الشعر الإنجليزي إخراج تعريف كولوردج) للخيال إلى حيز التنفيذ وهو التعريف الذي يؤكد أن الخيال هو البوتقة التي تنصهر فيها الأحاسيس التي ترفع فوق المستوى العادي طبقا لنظام مستحدث يخترعه الشاعر من وحي هذه الأحاسيس.

2.المسرح الإنجليزي:

اعتمد المسرح الإنجليزي على المسرحيات الشعرية نحو ما أنتجه(إليوت) و(كريستوفر فراي)، في حين اعتمد المسرح النثري على خلفه برنادشو) وما عدا ذلك كانت المسرحيات النثرية التي كتبها ترنيس راتيجان تخضع لمعظم مواصفات المسرح التجاري الذي يعتمد في نجاحه على العائد الاقتصادي.

ولم تنجح مسرحيا إليوت ولا فراي ولا راتيجان في تكوين قاعدة عريضة سواء من جمهور المتفرجين أو القراء كما فعلت مسرحيات برنادشو، فالمسرحية الشعرية لم تعد لها الشعبية الجماهيرية، هذا باستثناء مسرحيات شكسبير طبعا.

أما بالنسبة للكتاب الطليعيين أو التجريبيين الذين لا يهتمون بالنجاح التجاري كما يركزون على الابتكار في الشكل الدرامي فنجد(جايلز كوبر) وهنري ريد" الذين أتاح لهم البرنامج الثالث في الإذاعة البريطانية فرصة تقديم أعمالهم، في حين أنشأت "جوان لتلوود" مسرحها التجريبي شرقي لندن محاولة تقديم أعمال طليعية وخلق جمهور يأتي من اجل المتعة العقلية والنفسية لا لمجرد التسلية السريعة والرخيصة.

ولعل الملامح المميزة للمسرح الإنجليزي المعاصر هو الاتجاه الغاضب الذي يعرف بمسرح الاحتجاج والرفض، ورائد هذا الاتجاه (أوزيون) الذي حاول إلغاء التعاطف بين الجمهور والشخصيات كما فعل في مسرحيتي (المهرج) و(لوثر)، وذلك عن طريق إثارة غضب الجمهور مما يجري فوق المسرح.

ومن تطورات المسرح الغنجليزي نجد التجاه المضاد للواقعية أو لنقل بأنها واقعية جديدة متحررة من كل قيود التقليد والنسخ والوعظ والإرشاد، وهذا ما يسمى بالواقعية الفنية التي تهدف إلى استغلال كل الاتجاهات الدرامية من أجل تجسيد المضمون الفكري وتوصيله إلى المتفرج، لأنه من الممكن معالجة الواقع من آفاق اللاواقع مما يتيح رؤية متجددة، وهذا يجنب المسرح أخطاء التكرار والرتابة ويكسبه القدرة على مواكبة الحياة، واستطاعت أن تلقي عليها الأضواء مما جعل الانسان يقترب منها أكثر ويفهمها بصورة أفضل.

3.الرواية الإنجليزية:

يبدأ جيل الرواية الإنجليزية المعاصرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما قام جيل العمالقة السابق بتسليم أعلامه إلى هذا الجيل للاستمرار في حمل الأمانة الأدبية، فقد مضى(جويس) و(فرجينيا وولف) و(كاترين مانسفليد) وتوماس هاردي)، وكانت الحرب بمثابة الفاصل بي الجيلين، ومن أعلام الجيل الحالي الذي شهد عالما مخيفا عن عالم ما قبل الحرب (لورانس داريل، أنجوس ويلسون، وليام جولينج، وإيريس ميردوخ، ...).

ورغم الاختلافات الكبيرة بين هؤلاء الروائيين إلا أن روح العصر تميز أعمالهم، فمعظم رواياتهم تجسد السلوك الاجتماعي والفردي في مجتمع ما بعد الحرب، وتعالج مشكلات الجنس والشذوذ والزمن والسلطة والفقر واليأس والبطولة بمفهومها المعاصر.

ورغم تشابه الموضوعات في رواياتهم إلا أن اتجاهاتهم الفنية تكاد تختلف إلى حد التناقض.

يرى انجوس ويلسون أن الرواية الإنجليزية في جوهرها قوة من القوى المحافظة في المجتمع الإنجليزي، ترمي إلى الحفاظ على أسلوب الحياة وحماية الفكر من الغزو الأجنبي، لذلك يرى أن الرواية هي التعبير الفني عن حياة الطبقة الوسطى في إنجلترا وسلوكها وتفكيرها، وهو الراي الذي قوبل بهجوم من الروائيين والنقاد.

ومن الناحية الفنية فإن السلاح التقليدي الذي تستخدمه الرواية الإنجليزية هو السخرية، لكن الوضع تغير بعد الحرب العالمية الثانية، فالعزلة التقليدية لم يعد لها وجود، والحياة البريطانية المتماسكة اندثرت وتعرض المجتمع البريطاني للغزو الفكري القادم من الخارج، وتطبع الريف البريطاني بسمات المدينة وافتقاد الصفاء القديم.

وعليه يرى لورانس داريل أن وظيفة الرواية أصبحت هي شحن الانسان المعاصر بالاهتمامات الشاملة على سبيل تغييره إلى إنسان أفضل.

وترى ربيكا ويست ان الرواية ليست قوة محافظة كما يرى ويلسون بل عاملا ثوريا في المجتمع يعمل على تحطيم القيم البالية ويدافع عن التطلعات الإنسانية المتجددة.

وعن فكرة الالتزام فإنها مرفوضة من الروائئن الجدد فالالتزام فكرة شيوعية اخترعها الماركسيون لنشر الماركسية، والروائيون ليسوا جنودا في جيش هداية الناس، فالفن هو سبيل لخلاص الروح عن طريق النشوة والفرح كنتيجة

لاتساع أفق الانسان وإدراكه للحياة، وهي فكرة تشبه فكرة أرسطو في التطهير، فنحن لا نبحث عن الواقع في الرواية وإنما عن العاطفة والخيال.

وسواء كانت الرواية قوة محافظة في المجتمع الإنجليزي كما يقول ويلسون أو قوة ثورية كما تقول ويست، فالهدف الأخير لكل الروائيين هو مساعدة القراء في البحث عن معنى وجودهم بعيدا عن عوامل اليأس والتشتت والضياع التي تسيطر على المجتمع المعاصر.

*ملاحظة: مرجعية المحاضرة كتاب (معالم الأدب العالمي المعاصر لنبيل راغب من صفحة 17 إلى 50 (بتصرف)).